سعدي يوسف

الاحفاد

«الى عبدالله العروي»

ـ ١ ـ

ادخلتني في زهرة الرمان ، ثم مضيت عني
وتركتني بين التويجة واللقاح
تركتني ، اعرفت اني ... سائر في زهرة الرمان
آلافا من السنوات ؟
أفتح في التويج مدينة قروية
وتعاونية مستريبين ...
السماء قريبة
وبعيدة ارضي .

ـ ٢ ـ

من حضرموت ، سفينة خشبية حفرت على الحيزوم
حشرجة ابن ماجد ... استقامت وهي تنشق
في المحيط الفظّ وردته الكشيفة للرياح ،
سفينة من حضرموت ينز منها الماء والسمك
المجفف . اي جد في السفينة كان يستخفي على
حقويه هميان واحفاد عراقيون ؟ اي فحولة
عبرت به تلك السواحل ، حيث تنتظر النساء
مضمخات ضوع « بنت البحر » ، حيث يصفن
في الفبش المندّى المسك والحنّاء ؟ اي روائح
اختلبته ؟ رائحة القرنفل والثياب الهاشميات ؟
القواقع وهي تغدو الرمل ؟ رز الزعفران ؟ واية
امرأة محنّاة اليدين ، صغيرة القدمين
قد عشقته او هجرته ؟ هل يطوي يديه على خيوط
من ملابسها الخفية ؟ هل ترى تركت على صندوقه
الخشبي دمعتها ؟ سفينة حضرموت تئن في
ليل الخليج ... وبين حورياته ، بين الكواسج والنجوم
يدور احفاد عراقيون ، وامرأة ستخلبها الفحولة .

ـ ٣ ـ

طير غريب فوق نافذتي
اناديه ، فيدنو
ويدور في حجري ، فالمسه
فيغدو في يدي حجرا
وتسقط جمرة مني ...
فينتفض الجناح .

ـ ٤ ـ

بيديه (كان البحر نصف محارة بيضاء، زرقاء الظلال،
خطوطها المتموجات المستقيمة تخبر عن زمان السر
والتكوين) اطفأ ناره الليلية ... انطفأت جدائله ،
وفي صندوقه الخشب استرد البحر نصف محارة . .
اترى ستنطبق المحارة مرة أخرى ؟ ايأتي مرة
اخرى زمان السر والتكوين ؟ يلقي النجم نيزكه ،
وتهبط حبّة حتى قرار البحر .. ثم الخلق ؟
تخبو حضرموت . سفينة خشبية تنأى . وتنفز قلبه
صيحات « اهل البحر » . في ليل العراق تهيم وحدك،
تملك السمك المجفف . حضرموت بعيدة ، حقولك
يختضّان . مملكتي التي سأقيم فوق محارة : كوني
مباركة . ويا امراتي التي سأشدها : كوني مباركة .
ويا نخلاتنا : كوني مباركة . نسيم الليل حرّك من
جدائله . ورائحة الطحالب في الهواء الرطب . اغمض
مقلتيه هنيهة . هدأت جدائله، وغابت نجمة . في الشرق
تنهض وردة حمراء . ترتفع الخليقة . بفتة تهتاج
فاختة ، ويفتح مقلتيه .

ـ ٥ ـ

قلنا كثيرا
غير ان الببغاء تظل صامتة
وان نطقت اخيرا .
جعنا كثيرا
غير ان اكفّنا ستظل متخمة
فقد بسطت اخيرا .

ـ ٦ ـ

لم يبق من ذكرى السواحل غير وحشتها ...
لقد نهض النخيل . النهر يدخل في الجداول ،
والجداول في البيوت . النسوة المرحات ينشرن
الغسيل على حبال القنّب . الاطفال يجتمعون

مدرسة وراء التوت . مملكتي هي البستان مشتركا، هي الخبز الموزع في المناقير ، آحتمائي : اذرع الاحفاد ، والارض التي اكتنزت بشهوتها ، وأخرج من وثاقي .

— ٧ —

قد نبتني بيتا ، فنسجن فيه
ما ابهى الحياة !
ما الصوت يأتي من جذور النخل ... يدعوني :
مهاجر حضرموت : رأيت امس النهر مقطوعا ،
مهاجر حضرموت : سمعت امس النسوة المرحات
ينشرن الغسيل ويحتضنّ الجند بين النهر والمقهى.
مهاجر حضرموت : رأيت دار الملك عالية ...
مهاجر حضرموت : مررت بالبستان مقتسما .
مهاجر حضرموت : سألت عن صندوقك الخشبي ،
عن نصفي محارته ، وقيل : اضعته في النهر ...
قلتَ لنا : « اتيتُ هنا اوحّد شاطئين ، وابتني
في النهر مملكة مقدسة ، وفي الارض السلام ،
واهتدي بالنجم ، والشرق المفتّح وردة .
ايّان تنطبق المحارة مرة اخرى ؟ الفحولة لم تعد
تختضّ في حقويك ، والاحفاد ينتظرون عند التوت
حورياتهم في الليل . اسمع خفق اجنحة . سلاما
للحياة . تشهوة امرأة تضوع المسك والحنّاء ،
تلبس في المساء ، الهاشميّ ، ووجهها ثمل
بريح البحر ... من يأتي غدا ؟ كانت مباركة يداك ،
وكنتَ تهجس نبضة الصلصال حين تمسّه ،
وتحس بالاحفاد يضطربون تحت يديك حين تعانق
امرأة ... مهاجر حضرموت !

— ٩ —

للبحر انت تعود مرتيكا
والعمر
تنشره وتطويه
لو كنتَ تعرف كل ما فيه
لمشيت فوق مياهه ، ملكا .

— ١٠ —

خشب السفينة لم يعد بيديك كالصلصال .
لون البحر اكثر وحشة مما ظننت . وهذه
الآفاق تعرفها وتنكرها : الرياح تهبّ ،
والاسماك تسبقها ، ووردات ابن ماجد الكشيفة
هل نسيت نداءها ؟ كانت تشير ، تشير ...
والاسماك قبل الريح ... لون الماء قبل الريح .
والاخشاب تنذر بالعواصف . طائر يأتي ...
اتعرفه ؟ واهل البحر ؟ كنت تحس في
احداقهم يوما سبيلك ، تهجس اللفتات حين تشفّ
او تقسو ، وتقرأ في ملابسهم خطوط القلب .
انت الآن منفرد بفرفتك الصغيرة . ربما اومأت
للامواج منكسرا ... ستبلغ حضرموت ،
تعود ... لكن لست مثل النهر حين يعود نحو
المنبع السري . انت الآن تبلغ حضرموت مقرّح
الجفنين ، تبلغها كليل العين والرئتين ، تبلغها
ثقيل الخطو ... لا امرأة محناة اليدين ، صغيرة
القدمين تشمل بانتظارك ، لا حفيد سوف يحمل عنك
صندوق المسافر . ما الذي عادت به سنواتك
الستون ؟ انت تقول : مملكة بنيت ، ونخلة انبت ،
وامرأة عشقت . تقول : احفادا تركت هناك ...
وهما كانت السنوات . وحدك قابع في غرفة خشبية،
والبرق يصبغ بالبنفسج لحظة جفنيك ... يصبغ
بالبنفسج ما تبقّى من جدائلك الجميلة .

— ١١ —

أحفاده في الارض ينتشرون كالاغصان
احفاده يأتون
احفاده في دهشة الايمان
ينسون ما يأتون .

— ١٢ —

يتقاسم الاحفاد مملكة مخربة ، ويستهدون
بالسقطات . ساحل حضرموت يمر في النجم الذي
يتداولون مخبّأ . والجد مرتسم على راحاتهم خطا
من التيزاب . طول الليل ينتظرون حورياتهم ، والصبح
ينتقلون في العربات . مفترقاتهم كثرت ، واي مسالك
اختلطت ... واي معالم التاثت ... اينهض بينهم
في الفجر ، من سيشير معتنقا ذراع حبيبة ، متنكبا
« من ههنا سنسير ؟ » . نصف محارة في النهر ،
نصف آخر التقطته حورياتهم . ايّان تنطبق
المحارة مرة اخرى ... ويأتيهم زمان السر والتكوين؟
آت انت يا زمنا سنحياه
وآت انت يا زمنا سننساه
وآت انت يا زمنا نبادله مرارة حضرموت معا
وندخل فيه دار الجد ...
فتيانا ملائكة
وتنبت نخلة
ونعانق امرأة
ونقول : عاد الجد ...

بغداد